المشهد
العدد 329 - السنة الثانية عشرة- الثلاثاء 23-30 مايو 2023م - 3 ذو القعدة 1444هـ

قالت العرب

أنا لا أ كتب الأشعار فالأشعار تكتبنى ، / أريد الصمت كى أحيا، ولكن الذى ألقاه ينطقنى ،/ ولا ألقى سوى حزن، على حزن، على حزن ،/ أأكتب أننى حى على كفنى ؟/ أأكتب أننى حر، وحتى الحرف يرسف بالعبودية ؟

«العمانية» صفة يجب أن تدخل معاجم اللغات:

العمانيون تحضر ومدنية لم أشهد لهما شبيهًا فى جميع رحلاتى عبر العالم

ليس هناك أى شك بأن المجتمعات، رغم تفاوت نجاحاتها فى اسعاد شعوبها، تشترك مع بعضها فى العديد من المشاكل والصعوبات التى تواجهها على الصعيد السياسى والاقتصادى والاجتماعي. وإن نظرنا الى البلدان العربية، فنجد أن مشكلاتها هى من بين الأصعب فى العالم، وتتراوح بين انعدام أو انحسار الحريات السياسية وحقوق المواطنة والحريات المدنية إلى مشاكل الفقر وانعدام فرص الحياة الكريمة إلى الانقسامات الطبقية التى عادة ما تكون أرضًا خصبة للفساد والجريمة، هذا إن لم نذكر الحروب الداخلية والخارجية، التى فى النهاية تقلص من فرص التقدم. وقد زرت معظم البلدان العربية ولاحظت الكثير من هذه المصاعب التى تنعكس على الحياة اليومية، وما يصادفه الزائر لهذه المجتمعات عند احتكاكه معها. غير أن زيارتى الأخيرة لعمان، ذلك البلد الذى يقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية للوطن العربي، والذى قلما نجده متصدراً نشرات الاخبار أو مانشيتات الصحف اليومية، أو حتى المقالات التى تتناول حالات المجتمعات العربية، لتسلط الضوء على نجاحاتها أو اخفاقاتها! لا أدرى ما السبب وراء ذلك، ولكنى أجد ذلك معدوماً حتى فى الغرب، حيث أعيش. فالأوروبيون بشكل عام قلما تجدهم يجهلون مصر أو العراق أو سوريا أو لبنان أو المغرب أو الجزائر أو السعودية أو الامارات.. الخ، ولكنهم بشكل عام يجهلون عمان! وهذا ما دعانى إلى زيارة عمان التى كنت قد خططت لها قبل ثلاثة أعوام، إلا أن حلول وباء كوفيد منعنى من ذلك، حتى فتحت الحدود وأصبح السفر أقل صعوبة.

فى زيارتى القصيرة، والتى لم تتعد ثلاثة أسابيع، صادفت ما أدهشني، لدرجة لم يستطع قلمى أن يسكت عن هذه المشاهدات، وإن بقيت مشاهدات فقط، فإنها لا تختلف عن كل مشاهداتى فى جميع البلدان العربية فحسب، وإنما تختلف عن جميع مشاهداتى فى بلدان العالم التى زرتها خلال الثلاثين عاماً السابقة، والتى تنتشر على القارات الخمس. فهل يمكن الحكم على بلد وشعبه من خلال زيارة لا تتعدى الثلاثة أسابيع؟ الجواب الطبيعى هو كلا، ولكن يمكن للزائر أن يستقى نوعًا من المعرفة عن ذلك البلد، إن تسنى له التنقل فى مناطق مختلفة فى جغرافيتها، وإن تسنى له التعايش مع الأطياف الاجتماعية المؤلفة لذلك المجتمع. فمكوّن أى بلد وطبائع أهله وأخلاقهم تختلف حسب اختلاف طريقة العيش والمسكن التى يحددها الموقع الجغرافى وطبيعة المناخ.. ورغم أن هناك خصائص عامة يشترك بها سكان البلد الواحد، تعكسها ثقافة ذلك البلد والمتمثلة فى الدين السائد للناس والتاريخ الذى جمّع سكانه ومدى اعتزازهم بما هم عليه، كذلك انجازاتهم التى حققوها خلال الحقبات التاريخية القديمة والحديثة. إلا أن ما يصادفه الغريب من أخلاق وتعامل مع سكان المدن يبقى بالضرورة مختلفًا عما يصادفه فى تعامله مع سكان الصحراء، وهؤلاء يختلفون بطبيعة العيش وظروفهم الحياتية عن سكان الأرياف والمزارعين وعن سكان السواحل وصيادى السمك، وكل هذه الفوارق نجدها فى نفس البلد. فعمومًا يكون أهل المدن أكثر انفتاحًا لقبول الغريب، ولكنهم فى نفس الوقت لا يتمتعون بالضيافة والكرم، بل تجدهم مسرعين فى التعامل وأقل صبراً وفضولاً لمعرفة القادم إلى مدينتهم. أما أهل القرى والريف فنجدهم على العكس من ذلك، فهم أبطأ من أهل المدن ولكنهم أقل انفتاحًا واكثر تحفظا، ويتمتعون بروح الضيافة والكرم وتقديم المساعدة للغريب. أما سكان الجبال فهم أكثر انغلاقًا وريبة من الإثنين السابقين. كذلك هم سكان الصحراء، فهم يبهرون القادم ببساطتهم وبطء تعاملهم مع الغريب. وبالطبع هذه هى صفات عامة، يمكن لها أن تختلف بدرجات بين بلد وآخر، غير أننى وجدتها مشتركة بين العديد من البلدان والمدن التى زرتها فى حياتى منذ أن تركت مدينتى بغداد منذ أكثر من أربعين عامًا، تنقلت خلالها فى العيش فى القارات الخمس، وعملت فى بلدان أوروبية وعدة ولايات امريكية مختلفة وفى الشرق الأوسط والهند والصين واليابان. ومن الغريب أن الكتابة لم تشغلنى عن أى من هذه الدول، رغم أن العديد من المدن تركت اثراً ما فى وجداني، ووجدت طريقها إلى قصائدي، مثل بغداد ومدينة الكويت وكوبنهاجن وسمرقند واصفهان والاسكندرية واسطنبول ولشبونة ونيويورك وغيرها الكثير، ولكن دافع الكتابة عن انطباعاتى عن بلد ما وناسه لم يجرنى إلى الكتابة عن أى بلد حتى زرت عمان فى مطلع هذا العام، ولم يتسن لى بعدها أن أبقى قلمى سجينًا فى القصائد فقط. فحال رجوعى من عمان، تملكنى شغف الكتابة عنما رأيت وعنما تعرفت عليه وصادفته من تحضر ومدنية لم أشهد لهما شبيهًا فى جميع رحلاتي. فكتبت مقالاً للقارئ الدنماركي، وها انا اكتب للقارئ العربي.

هناك بالطبع المعلومات الثابتة عن عمان والمتوفرة على صفحات الانترنت، بما فى ذلك المساحة وعدد السكان والمقيمين فيه، كذلك نبذة وافية عن تاريخ البلد وفترات الاستعمار وفترات حكم العمانيين لبلدهم ومتى استقل وما حققه هذا البلد من منجزات...الخ، وما كشفته آثار الحضارات التاريخية الأولى فى وادى الرافدين ومصر عن أهمية عمان منذ تلك القرون، وحضارته التى امتدت فى فترة زمنية معينة، وبالتحديد فى القرن السادس عشر والسابع عشر، لتضم جهتى الخليج العربى وكل جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا حتى شملت مدغشقر وجزر القمر. لم أجهل هذه المعلومات قبل زيارتي، إلا أنها لم تمدنى بالمعرفة الكافية لطبيعة العمانيين اليوم.

بداية الرحلة

بدأت رحلتي، وصحبتى الأوروبية، فى العاصمة مسقط، ثم توجهت إلى العاصمة القديمة صحار، ثم المدينة الأثرية نزوى التى كانت ايضًا العاصمة فى عصور الاسلام، بعدها دخلنا الصحراء ومكثنا فيها لكى نتعرف على بدوها وطقسها وعادات سكانها، ثم غادرنا الصحراء إلى مدينة صور، التى اتخذها الفينيقيون مركزًا لهم وهم الذين اطلقوا هذا الاسم عليها تيمنًا بمدينة صور اللبنانية، كما يذكرنا التاريخ، لنعود مرة أخرى إلى مسقط. ولم يفتنى التوقف فى العديد من المدن الصغيرة والقرى الواقعة بين هذه المدن. وقد استطعت أن احتك واتعرف على معظم المكونات السكانية لهذا البلد، من سكان المدن والقرى والجبال والصحراء والموانيء. كما أن هذه المدن هى الأهم والأكبر فى عمان، وتشكل مجتمعة دائرة تضم فى داخلها السهول والجبال، ويتاخم محيطها الصحراء، التى هى جزء من صحراء الربع الخالي، والسواحل الخلابة واللامتناهية فى طولها. وهذه المدن وما يحيطها تضم معظم الآثار العمانية التى ساهمت فى صيرورة البلد وصيرورة أهله منذ عصور قبل التاريخ وحتى يومنا هذا. فهناك القلاع والحصون التى تشهد على حياة لا مثيل لها فى مكان آخر، وكل مدينة لها قلعة وحصن وسوق وسور للمدينة القديمة، تم ترميمها بعناية ومهنية عالية لتقف اليوم شاهدة لمكان كان يومًا وجهة يؤمها الناس من جميع أنحاء العالم ليرجعوا بخيرات لا يجدونها فى بلدانهم أو فى البلدان المجاورة لهم، وكما للطفل المدلل فى المثل الدنماركى أكثر من إسم، لعمان كذلك، فقد سماها السومريون "مجان" بمعنى الميناء ولقّبوها "بجبل النحاس" لشهرة أهلها فى استخراج النحاس الذى كان يعتمد عليه العالم. وأطلق عليها الأوروبيون اسم "بلاد البخور"، وتوازيًا مع طريق الحرير سميت "بطريق البخور"، ولاحقًا "بلد اللبان"، كما أسماها الفرنسيون.. وهكذا فلعمان أكثر من إسم، وحقًا يستحق هذا البلد أن يكون مدللاً، لما دلّل العالم بخيراته وموارده الفريدة. غير أن العالم اكتفى بالموارد والخيرات العمانية وفاته أن ينهل من عمان والعمانيين ما هو أهم من الموارد والخيرات، شئ فريد لم أصادفه فى أى بلد آخر، ولم أحلم أن اصادفه يومًا، وإن حدثنى أحد عنه لقلت أنه ضرب من الخيال أو على الأقل مبالغة من الراوي.

طبيعة العمانيين

ما أتحدث عنه الآن وما شكّل لى مفاجأة جميلة هو طبيعة العمانيين التى تختلف حتى عن كل العرب والمسلمين، وعن جميع شعوب البلدان التى زرتها وعشت فيها. فى عمان يقابلك العمانى بالترحاب غير المعهود، بغض النظر عن لون بشرتك أو شكل ملبسك، إن كنت رجلاً أو امرأة، إن كنت عربيًا أو أجنبيًا، إن كنت شابًا أو شيخًا... فهو لا يقابلك إلا لكونك إنسانًا مثله، وعليه أن يساعدك دون أى حساب لأى مقابل، فقط لأنك غريب. والعمانيون يتسابقون، رغم اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والاقتصادية، لتأدية العون لمن يصادفونه، إن كان ذلك فى المدن الكبرى أو فى القرى أو فى الصحراء، وعلى الرغم من مظهرك الذى يصرخ بأنك لست عمانيا، وذلك لأن للعمانيين زيهم الخاص الذى يختلف عن الآخرين، ذلك الزى الناصع فى نظافته ورائحته العذبة، تلك الرائحة التى تجعلك تمشى وراء أى عماني، فقط لتستنشق ذلك العطر الطبيعى الذى لم تمسه آلات التصنيع، تمشى وراءه وكأنك تتنزه فى بستان تفوح منه رائحة العود والمسك واللبان والياسمين والورود الزكية. ولباس العمانيين معروف، فالدشداشة والعباءة والبشت والسروال وغطاء الرأس لباس لكل العمانيين، وتتغير ألوان هذا اللباس الجذابة بتغير المناسبة وفصول السنة، ولكن ما يطغى عليه هو البساطة والأناقة. كذلك الكمة أو العمامة التى تنم عن ذوق رفيع لتناسقها مع تفاصيل الدشداشة وألوانها. فى المتحف الوطني، اطلعنا على مختلف الأشكال للباس العماني، واكتشفنا أن فى ملبس الرجال والنساء إيحاءات للمكان الذى ينتمى إليه العمانى أو العمانية، معروفة لأهل البلد والدارسون للأزياء فقط. الأهم من ذلك كله هو التعامل الانسانى البحت عند العمانيين، الذى تحيرت فى أن أطلق عليه أى نعت أو صفة يمكن أن ينعت بها غير العمانيين. فصفة التسامح لوحدها لا تكفى لوصف العمانيين، كذلك قبول الآخر واحترام ما لدى الآخرين وذوى الأخلاق الحميدة والذوق الرفيع وتميّزهم بالتأنى والهدوء وبالتأهب لمد يد العون...الخ، كل هذه إلا صفات منفردة، وليس هناك فى اللغة، على حد علمي، كلمة واحدة تجمع كل هذه الصفات. لذلك وجدت أن كلمة "العمانية" يمكن أن تدخل فى اللغات كصفة تجمع كل هذه الصفات وتعبر عن قيم وسلوك لأى انسان يتحلى بما يتحلى به العمانيون. ربما يظن البعض أنها مبالغة مني، ولكنها تبقى انطباعًا رافقنا طوال الرحلة، ولليوم أجد من يحبنى فى الرحلة يحاول أن يقلد العمانيين فى الحياة اليومية.

يحدث فقط فى عمان

فى رحلاتى حول العالم صادفت بالطبع أناسًا يتحلون بواحدة أو أكثر من هذه الصفات، ولكنى لم أصادف ناسًا يتحلون بالعديد من هذه الصفات فى آن واحد، ولم أصادف شعبًا يمتلك هذه الصفات بغض النظر عن انتماءاته وطبيعة حياته. فالعمانى يقبلك كآخر ولكن يعاملك كمثله ويبدى استعداده لمساعدتك إن احتجت لها اينما كنت، فى الطريق العام أو فى البنك أو فى المحلات التجارية أو حتى فى مركز للشرطة. فى ظهيرة أحد الأيام، عندما كانت الاسواق مغلقة والناس يتمتعون بقيلولة النهار، توقفت عند موقف لسيارات الأجرة لأتأكد من وجهتى التى كنت أقصدها من سائقى سيارات الأجرة اللذين كانوا قد تركوا سياراتهم للتمتع بالحديث مع بعضهم وشرب الشاى والقهوة. ولكن سرعان ما اختلفوا بينهم عن أقصر الطرق إلى وجهتي، فنهض احدهم وطلب منى أن أتبعه فى سيارتي. بعد بضعة كيلومترات قطعناها على الطريق، هو فى سارة الاجرة وانا فى سيارتي، أشار لى عن المكان المقصود ورجع أدراجه دون أن يطالبنى بأى مقابل! ولم يكتف بذلك، بل دعانى والأوروبيين الذين كانوا يرافقوننى إلى طعام الغداء فى بيته لأن "فى أوقات الظهيرة تكون جميع المطاعم مغلقة" كما أخبرني.

وفى محل لبيع شرائح الهاتف الجوال والاشتراكات الهاتفية، نقل أحد الزبائن، دون أن أطلب منه ذلك، رصيداً إلى جوالى بعد أن تعذر على البائع التعرف على الكارت البنكى الذى كنت أحمله. وكذلك هنا، لم يطلب هذا العمانى أى مقابل، بل اكتفى بالمعونة وذهب لحاله مودعًا بكل أدب. وفى إحدى القرى، شاهدتنا إحدى السيدات وتعرفت على نظرات الفضول فى أعيننا، فلم تتوان فى دعوتنا إلى دخول منزلها لترينا بفخر متواضع كيف تعيش اسرة عمانية فى هذه القرية، بعد أن قدمت لنا البلح والقهوة العمانية الشهيرة التى يقدمها أى عمانى لأى زائر مرحبًا بمجيئه، حتى فى مركز الشرطة، يقدم لك الضابط ذلك خلال فترة الانتظار! بعد كل هذه التجارب، بتنا نسأل بعضنا، فى أى بلد صادف أى منّا مثل هذه الضيافة؟ وفى أى مكان عام أو خاص، وحتى فى المحلات التجارية، تعرض المنتجات ليتذوقها أو يجربها الزبون مجانًا، ودون أى شرط للشراء، وإن كانت المنتجات من المكسرات أو التوابل أو الفواكه أو الحلوى العمانية الشهيرة.

فى هذه الرحلة لم نكن نعرف أى عمانى مسبقًا، ولكننا شعرنا بالأمان. فالضيافة فى عمان لا تقتصر على من يعرفونهم، بل هى ضيافة للجميع. والملفت للنظر، أننا لم نصادف فى عمان خناقاً أو شجاراً فى الشارع أو فى الأسواق الشعبية، ولا شحاذاً، ولم يحاول أحد أن يخدعنا أو يبتزنا، ولم تدو أبواق السيارات تشهّر بفوضى المرور، ولم أسمع ميكروفونات الأذان تؤذن بأصوات غير مرغوب بها وصلوات تطول لنصف ساعة كما هو الحال فى بعض الدول الاسلامية، تزعج حتى المسلم، ولم يوقفنى شرطى طمعًا برشوة أو ليستعرض سلطته، ولم يمنعنى أحد من دخول أى مكان، ولم يكلمنى أحد بصوت عال أو بلهجة آمرة، ولم يتنكر أحد عن مساعدتي، ولم أجد مدخنين ينفثون بدخان سجائرهم فى هواء الصالات والمقاهى والأمكنة العامة، ولم أجد القمامة ورائحتها تعم الأرصفة والشوارع.. باختصار، لم أجد فى عمان ما يجرح الذوق العام.

ما هو سر عمان؟

لى أن اتحدث طويلاً عن هذا البلد، وأن أذكر حكايات يصعب تصديقها، عن ذلك البدوى الذى ترك سيارته ليسألنى إن كنت بحاجة إلى المساعدة، وابن المدينة الذى دفع مبلغ موقف سيارتى لأنه وجدنى عاجزاً عن ايجاد طريقة للدفع، وصياد السمك الذى قدم سمكة مجاناً لنا لانه لا يملك ماكينة تقرأ البطاقات البنكية، وبائع التوابل الذى قدم علبة من "السمّاك" فقط لأن الزبون الأجنبى لم يعرف هذا المنتج، وربة البيت التى أعدت الطعام لغرباء صادفتهم أثناء فترة الظهيرة، وغيرها من الحكايات المفرحة التى يسعد بها أى سامع عن ذلك البلد الذى يدعى عمان وعن العمانيين.

غير أن السؤال يبقى عالقًا فى الذهن، ترى ما هى الأسباب أو المقومات أو الأحداث التى جعلت من شعب يتحلى بهذه الآداب والأخلاق الفريدة؟ مختلفًا بها عن شعوب العالم أجمع. سؤال لم أستطع الاجابة عليه، فهل لى أن أعزى ذلك إلى حفاظ العمانيين على تراثهم وتقاليدهم التى طوروها تبعًا إلى رغبتهم وسرعة سير مجتمعهم، بينما تشوهت عند الشعوب الأخرى بفعل دخول الاستعمار وتعاقب السلطات القمعية؟ لكن هذا ليس إلا مشجبًا سهلاً يمكن أن أعلق عليه كل الأسباب والعلل التى تعانى منها شعوب المنطقة. هل لى أن أعزى ذلك إلى التقاليد الدينية المتسامحة، أم هو التكاتف الشائع بين العمانيين وحبهم الحقيقى لبلدهم؟ أم هو الفخر المتواضع بما لديهم؟ هل هى قوانين المساواة التى لا يجدها عند اكثر الشعوب مدنية؟ أهو التعليم المبكر والذى يذكر باحترام الآخر وقبوله بغض النظر عن اختلافه؟ وربما تكون الأم العمانية وراء كل ذلك، فهى تربى أولادها وتعلمهم هذه الاخلاق منذ ولادتهم فى حضنها؟ أو ربما يكون كل ذلك مجتمعًا! ولكنه يبقى فى جميع الاحوال سؤالاً على الباحثين فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى أن يجيبوا عليه.

ما لى أن أقوله للقارئ الآن هو، أن العمانيين يبدون لى وكأنهم يتحلون بصفات لا تنتمى لهذا الكوكب، وكما يعرّف انساناً بهذه الصفات فى علم الاجتماع بانه ذو فائض، أجد العمانيين يتحلون بفائض انسانى يجمع الفائض العاطفى والمادى فى آن واحد. ولى أن أعترف، أن هذه الصفات لم اصادفها فى أى بلد عربى أو أوروبى أو أمريكى أو شرق أسيوى أو أفريقي، صفات أخبرتنا القصص أن الأنبياء تتابعوا فى التاريخ لكى ينصحوا شعوب الأرض بالتحلى بهذه الأخلاق، والظاهر أن العمانيين فقط من اتبع وصايا الأنبياء. لقد تركت هذه الزيارة أثرا فى وجدانى يجعلنى أثابر على أن أتحلى يومًا بهذه الصفة.. «العمانية».

بقلم د. سليم العبدلي
كاتب واكاديمى يقيم فى الدنمارك